حركة البساسيري وطغرلبك السلجوقي:

كان البساسيري في الأصل مملوكا تركيا للسلطان بهاء الدولة البويهي ثم أخذ يتنقل في وظائف الدولة إلى أن عينه الخليفة القائم قائداً لحرسه ، وقربه إليه حتى صار لا يقطع أمراً إلا بعد استشارته . وقد أثار ازدياد نفوذ البساسيري حقد الوزير أبي القاسم علي بن المسلمة ، فأخذ يكيد له ويفسد ما بينه وبين الخليفة حتى غضب عليه الخليفة القائم واضطر البساسيري إلى الهرب من بغداد والإقامة في مدينة الرحبة شمالا على نهر الفرات .

ولما دخل طغرلبك بغداد ، اتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي في القاهرة ، المستنصر بالله أبي تميم معد ، وطلب منه نجدة لفتح بغداد وطرد السلاجقة منها .

وأمام هذه الأحداث الجديدة ، قرر الخليفة الفاطمي أن يستجيب لنداء البساسيري بغية الانتقام لسقوط الدولة البويهية . قال أبو المحاسن : « إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك ، وخمسمائة فرس ، وعشرة آلاف قوس ، ومن السيوف ألوف ، ومن الرماح والنشاب شيء كثير » [1] .

وأخذ البساسيري ، بعد استلام هذا المدد ، ينتظر الفرصة المناسبة للهجوم على بغداد ، وأخيرا ظفر بها في سنة ٤٥٠ هـ عندما خرج طغرلبك من بغداد لمحاربة أخيه ابراهيم ينّال في شمال العراق . فانتهز البساسيري هذه الفرصة وهاجم بغداد واستولى عليها بمعاونة أهل الكرخ ، وهو من أكبر أحياء الشيعة ببغداد ويقع في جانبها الغربي .

وقبض البساسيري على الوزير أبي القاسم بن المسلمة الذي كان سبب خروجه من بغداد ، فقيده وشهّره على جمل وعليه طرطور وعباءة ، وجعل في رقبته قلائد كالمسخرة ، وطيف به بالشوارع ، وخلفه من يصفعه ، ثم سلخ له ثور وألبس جلده وخيط عليه ، وجعلت قرون الثور في رأسه ، ثم علق على خشبة ، وعمل على فكيه كلاّبان من حديد ، فلم يزل يضطرب حتى مات » [2] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ١١ – ١٢ .
(٢) أبو المحاسن : نفس المرجع حـ ٥ ص ٧ .

أما الخليفة القائم فقد نهبت العامة داره غير أن البساسيري أحسن معاملته وسلمه لوالي مدينة عانه في شمال الفرات بعد أن أرغمه على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود أولاد فاطمة الزهراء . ورفع البساسيري الألوية المصرية في بغداد ، وفي غيرها من الأقاليم والمدن التي فتحها مثل البصرة وواسط ، وخطب للخليفة المستنصر أبي تميم معد على منابرها ، وأرسل إليه يعرفه ما فعل .

وسر المستنصر سرورا عظيماً لهذا النصر الكبير الذي لم يحدث لأحد من آبائه أو أجداده ، فأقيمت الزينات والأفراح في القاهرة ، ووقفت المغنية نَسَبْ الطباله تحت القصر ، وأخذت تنشد وهي تضرب بالطبل ومعها بطانتها :

يـا بـنـي العبـاس ردوا ... مـلك الأمـر معـدُّ
مُلْكُكُـم مُـلكٌ معـارٌ ... والعَـوارى تستـرد [1]

فطرب المستنصر لذلك ، وطلب منها أن تتمنى عليه ، فسألته أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها إياها وسميت بأرض الطبالة وهي من أحسن منتزهات القاهرة ، ومكانها اليوم منطقة السكن التي يحدها من الشمال والغرب شارع الظاهر ، ومن الجنوب شارع الفجالة ، ومن الشرق شارع الخليج المصري[2]

ولقد كان من المنتظر أن يواصل المستنصر تدعيمه لثورة البساسيري بالمال والسلاح ولكنه لم يفعل ، ويرجع المؤرخون سبب ذلك إلى عدم ثقة المستنصر في البساسيري من جهة ، وإلى الأزمة الاقتصادية السياسية الخطيرة التي حلت بمصر في ذلك الوقت وهي المعروفة في كتب التاريخ باسم الشدة العظمى ، من جهة أخرى .

وكيفما كان الأمر فإن ثورة البساسيري لم تدم طويلا ، فبعد انتصار طغرلبك على أخيه ابراهيم ينال ، رجع إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم إلى عرشه ، ثم قاتل البساسيري حتى هزمه وقتله وصلبه ؛ فتخلصت الدولة العباسية بذلك من هذه الاضطرابات الداخلية الخطيرة [3] .

---

(١) المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ١١٥ والعواري مفردها العاره والعارية وهي الاعارة أو ما يتداوله القوم فيما بينهم . وقد وردت هذه الأبيات بصورة مختلفة في بعض المراجع الأخرى مثل :

يا بني العباس صدوا ... ملك الأمر معد
ملككم كان معارا ... والعوارى تسترد

(٢) راجع (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ١٢ حاشية رقم ٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ص ٦٤٩ .

وقد توج طغرلبك هذا النصر بالزواج من ابنة الخليفة القائم سنة ٤٥٤ هـ ،

إلا انه لم يعمر بعد زواجه طويلا وتوفي في رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م)
وهو في سن السبعين .